

وعنادهم، وظهر الحق وسطع، وبطل الباطل وانقمع، وذلك بسبب بيان **﴿علام الغيوب﴾** الذي يعلم ما تطوي

عليه القلوب من الوسواس والشبه، ويعلم ما يقابل ذلك ويدفعه من الحجج.

فيعلم بها عباده، وبينها لهم، ولهذا قال: **﴿قل جاء الحق﴾** أي: ظهر وبان، وصار بمنزلة الشمس، وظهر سلطانه. **﴿وما يبديء الباطل وما يعيد﴾** أي: اضمحل وبطل أمره، وذهب سلطانه، فلا يبديء ولا يعيد.

ولما تبين الحق بما دعا إليه الرسول، وكان المكذبون له يرمونه بالضلال، أخبرهم بالحق ووضحه لهم، وبين لهم عجزهم عن مقاومته، وأخبرهم أن رميمهم له بالضلال ليس بضائر الحق شيئاً، ولا دافع ما جاء به.

وأنه إن ضل - وحاشاه من ذلك، لكن على سبيل التنزل في المجادلة - فإنما يضل على نفسه، أي: ضلاله قاصر على نفسه، غير متعد إلى غيره.

﴿وإن اهتديت﴾ فليس ذلك من نفسي وحولي وقوتي، وإنما هدايتي بما **﴿يوحى إلى ربي﴾** فهو مادة هدايتي، كما هو مادة هداية غيري. إن ربي **﴿سميع﴾** للأقوال والأصوات كلها **﴿قريب﴾** ممن دعاه وسأله وعبه.

﴿٥١ - ٥٤﴾ **﴿ولو ترى إذ فرعوا فلا فوت وأخذوا من مكان قريب * وقالوا آمنا به وأنى لهم التناوش من مكان بعيد * وقد كفروا به من قبل ويقذفون بالغيث من مكان بعيد * وحيل بينهم وبين ما يشتهون كما فعل بأشياعهم من قبل إنهم كانوا في شك مريب﴾** يقول تعالى: **﴿ولو ترى﴾** أيها الرسول، **﴿ومن قام مقامك﴾** حال هؤلاء المكذبين، **﴿إذ فرعوا﴾** حين رأوا العذاب، وما أخبرتهم به الرسل، وما كذبوا به، لرأيت أمراً هائلاً، ومنظراً مفضعاً، وحالة منكرة، وشدة شديدة، وذلك حين يحق عليهم العذاب.

الخلق، أبدأ، وسكينة، وتواضعاً، ووقاراً، لا يكون [لا] لأرزن الرجال عقلاً.

ثم [إذا] تأملوا كلامه الفصيح، ولفظه المليح، وكلماته التي عملاً القلوب أمناً وإيماناً، وتركي النفوس، وتطهر القلوب، وتبعث على مكارم الأخلاق، وتحت على محاسن الشيم، وترهب^(٢) عن مساوىء الأخلاق ورذائلها، إذا تكلم رفته العيون، هيبة وإجلالاً وتعظيماً.

فهل هذا يشبه هذيان المجانين وعربدتهم، وكلامهم الذي يشبه أحوالهم!!

فكل من تدبر أحواله، ومقصده استعمال هل هو رسول الله أم لا؟ سواء تفكر وحده أو مع غيره، جزم بأنه رسول الله حقاً، ونبيه صدقاً، خصوصاً المخاطبين، الذي هو صاحبهم يعرفون أول أمره وآخره.

وتم مانع للنفوس آخر من اتباع الداعي إلى الحق، وهو أنه يأخذ أموال من يستجيب له، ويأخذ أجره على دعوته. فبيئ الله تعالى نزاهة رسوله ﷺ عن هذا الأمر، فقال: **﴿قل ما سألتكم من أجر﴾** أي: على اتباعكم للحق **﴿فهو لكم﴾** أي: فأشهدكم أن ذلك الأجر - على التقدير - أنه لكم، **﴿إن أجرى إلا على الله وهو على كل شيء شهيد﴾** أي: يحيط علمه بما أدعو إليه، ولو كنت كاذباً، لأخذني بعقوبته، وشهيد أيضاً على أعمالكم، سيحفظها عليكم، ثم يجازيكم بها.

ولما بين البراهين الدالة على صحة الحق وبتلان الباطل، أخبر تعالى أن هذه سنته وعادته أن **﴿يقذف بالحق﴾** على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق، لأنه بين من الحق في هذا الموضع، ورد به أقوال المكذبين، ما كان عبيرة للمعتبرين، وآية للمتأملين.

فإنك كما ترى، كيف اضمحلت أقوال المكذبين، وتبين كذبهم



﴿قل﴾ يا أيها الرسول، لهؤلاء المكذبين المعاندين، المتصددين لرد الحق وتكذيبه، والقدح بمن جاء به: **﴿إنما أعظكم بواحدة﴾** أي: بخصلة واحدة، أشير عليكم بها، وأنصح لكم في سلوكها، وهي طريق نصف، لست أدعوكم بها إلى اتباع قولي، ولا إلى ترك قولكم من دون موجب لذلك، وهي: **﴿أن تقوموا لله مثنى وفرادى﴾** أي: تهضوا بهمة ونشاط، وقصد لاتباع الصواب، وإخلاص لله، مجتمعين، ومتباحثين في ذلك، ومتناظرين، وفرادى، كل واحد يخاطب نفسه بذلك.

فإذا قمتم لله مثنى وفرادى، استعملتم فكركم وأجلمتموه، وتديرتم أحوال رسولكم، هل هو مجنون، فيه صفات المجانين من كلامه، وهينته، وصفته؟ أم هو نبي صادق، منذر لكم ما يضركم، مما أمامكم من العذاب الشديد؟

فلو قبلوا هذه الموعظة واستعملوها، لتبين لهم أكثر من غيرهم، أن رسول الله ﷺ ليس بمجنون، لأن هيئته^(١) ليست كهيئات المجانين، في خنقهم، واختلاجهم، ونظرهم، بل هيئته أحسن الهيئات، وحركاته أجل الحركات، وهو أكمل

(١) في ب: هيئته.

(٢) في ب: وترجز.

فليس لهم عنه مهرب ولا فوت،
﴿وأخذوا من مكان قريب﴾ أي: ليس
بعيداً عن محل العذاب، بل يؤخذون
ثم يقذفون في النار.

﴿وقالوا﴾ في تلك الحال: ﴿أمانا﴾

بالله وصدقنا ما به كذبنا ﴿و﴾ لكن
﴿أتى لهم التناوش﴾ أي: تناول
الإيمان ﴿من مكان بعيد﴾ قد حيل
بينهم وبينه، وصار من الأمور المحالة
في هذه الحالة، فلو أنهم آمنوا وقت
الإمكان، لكان إيمانهم مقبولاً،
ولكنهم ﴿كفروا به من قبل ويقذفون﴾
أي: يرمون ﴿بالغيب من مكان بعيد﴾
بقذفهم الباطل، ليدحضوا به الحق،
ولكن لا سبيل إلى ذلك، كما لا سبيل
للرامي من مكان بعيد إلى إصابة
الغرض، فكذلك الباطل، من المحال
أن يغلب الحق أو يدفعه، وإنما يكون
له صولة، وقت غفلة الحق عنه، فإذا
برز الحق وقاوم الباطل قمعه.

﴿وحيل بينهم وبين ما يشتهون﴾

من الشهوات واللذات، والأولاد،
والأموال، والخدم، والجنود، قد
انفردوا بأعمالهم، وجاؤوا فرادى كما
خُلِقُوا، وتركوا ما خولوا وراء
ظهورهم، ﴿كما فعل بأشياعهم﴾ من
الأمم السابقين حين جاءهم الهلاك،
حيل بينهم وبين ما يشتهون. ﴿إنهم
كانوا في شك مريب﴾ أي: محدث
الريبة وقلق القلب، فلذلك لم يؤمنوا،
ولم يعتبروا حين استعتبوا.

تم تفسير سورة سبأ - والله الحمد والمئة
والفضل، ومنه العون، وعليه التوكل،
وبه الثقة

تفسير سورة فاطر وهي مكية

﴿١ - ٢﴾ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم
الحمد لله فاطر السماوات والأرض
جاعل الملائكة رسلاً أولي أجنحة مثنى
وثلاث ورباع يزيد في الخلق ما يشاء
إن الله على كل شيء قدير﴾ ما يفتح
الله للناس من رحمة فلا محسك لها وما
يمسك فلا مرسل له من بعده وهو
العزیز الحكيم ﴿يمدح الله تعالى نفسه

الكريمة المقدسة، على خلقه السماوات
والأرض، وما اشتملتا عليه من
المخلوقات، لأن ذلك دليل على كمال
قدرته، وسعة ملكه، وعموم رحمته،
وبديع حكمته، وإحاطة علمه.

ولما ذكر الخلق، ذكر بعده ما
يتضمن الأمر، وهو: أنه ﴿جاعل
الملائكة رسلاً﴾ في تدبير أوامره
القدرية، ووسائط بينه وبين خلقه، في
تبليغ أوامره الدينية.

وفي ذكره أنه جعل الملائكة رسلاً،
ولم يستثن منهم أحداً، دليل على كمال
طاعتهم لربهم وانقيادهم لأمره، كما
قال تعالى: ﴿لا يعصون الله ما أمرهم
ويقولون ما يؤمرون﴾.

ولما كانت الملائكة مديرات
بإذن الله، ما جعلهم الله موكلين فيه،
ذكر قوتهم على ذلك وسرعة سيرهم،
بأن جعلهم ﴿أولي أجنحة﴾ تطير بها،
فتسرع تنفيذ ما أمرت به. ﴿مثنى
وثلاث ورباع﴾ أي: منهم من له
جناحان وثلاثة وأربعة، بحسب ما
اقتضته حكمته. ﴿يزيد في الخلق ما
يشاء﴾ أي: يزيد بعض مخلوقاته على
بعض، في صفة خلقها، وفي القوة،
وفي الحسن، وفي زيادة الأعضاء
المعهودة، وفي حسن الأصوات، ولذة
النعيمات.

﴿إن الله على كل شيء قدير﴾
فقدرته تعالى تأتي على ما يشاؤه، ولا
يستعصي عليها شيء، ومن ذلك زيادة
مخلوقاته بعضها على بعض.

ثم ذكر انفرادة تعالى بالتدبير
والعطاء والمنع، فقال: ﴿ما يفتح الله
للناس من رحمة فلا محسك لها وما
يُمسك﴾ من رحمته عنهم ﴿فلا مرسل
له من بعده﴾ فهذا يوجب التعلق بالله
تعالى، والافتقار إليه من جميع الوجوه،
وأن لا يدعى إلا هو، ولا يخاف
ويرجى إلا هو. ﴿وهو العزيز﴾ الذي
قهر الأشياء كلها ﴿الحكيم﴾ الذي
يضع الأشياء مواضعها وينزلها
منازلها.

﴿٣ - ٤﴾ ﴿يا أيها الناس اذكروا
نعمة الله عليكم هل من خالق غير الله



يرزقكم من السماء والأرض لا إله إلا
هو فأنى تؤفكون * وإن يكذبوك فقد
كذبت رسل من قبلك وإلى الله ترجع
الأمور﴾ يأمر تعالى جميع الناس أن
يذكروا نعمته عليهم، وهذا شامل
لذكرها بالقلب اعترافاً، وباللسان ثناء،
وبالجوارح انقياداً، فإن ذكر نعمه تعالى
داع لشكره، ثم نبههم على أصول
النعم، وهي الخلق والرزق، فقال:
﴿هل من خالق غير الله يرزقكم من
السماء والأرض﴾.

ولما كان من المعلوم أنه ليس أحد
يخلق ويرزق إلا الله، نتج من ذلك،
أن كان ذلك دليلاً على ألوهيته
وعبوديته، ولهذا قال: ﴿لا إله إلا هو
فأنى تؤفكون﴾ أي: تصرفون من عبادة
الخالق الرازق لعبادة المخلوق المرزوق.

﴿وإن يكذبوك﴾ يا أيها الرسول،
فلك أسوة بمن قبلك من المرسلين،
﴿فقد كذبت رسل من قبلك﴾ فأهلك
المكذبون، ونجى الله الرسل
وأتباعهم. ﴿وإلى الله ترجع الأمور﴾

﴿٥ - ٧﴾ ﴿يا أيها الناس إن وعد
الله حق فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا
يغرنكم بالله الغرور * إن الشيطان لكم
عدو فاتخذوه عدواً إنما يدعو حزبه
ليكونوا من أصحاب السعير * الذين
كفروا لهم عذاب شديد والذين آمنوا
وعملوا الصالحات لهم مغفرة وأجر
كبير﴾ يقول تعالى: ﴿يا أيها الناس إن



والحركة والسكون، وانتشار العباد في طلب فضله، وما فيهما من تنضيج الشمار وتحفيف ما يخفف^(٢)، وغير ذلك مما هو من الضروريات، التي لو فقدت للبحق الناس الضرر.

وقوله: ﴿كُلٌّ يَجْرِي لِأَجْلِ مَسْمِيٍّ﴾

أي: كل من الشمس والقمر، يسيران في فلكهما ما شاء الله أن يسيرا، فإذا جاء الأجل، وقرب انقضاء الدنيا، انقطع سيرهما، وتعطل سلطانهما، وخسف القمر، وكورت الشمس، وانتشرت النجوم.

فلما بين تعالى ما بين من هذه المخلوقات العظيمة، وما فيها من العبر الدالة على كماله وإحسانه، قال: ﴿ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ﴾ أي: الذي انفرد بخلق هذه المذكورات وتسخيرها، هو الرب المألوه المعبود، الذي له الملك كله.

﴿والذين تدعون من دونه﴾ من الأوثان والأصنام ﴿ما يملكون من قطمير﴾ أي: لا يملكون شيئاً، لا قليلاً ولا كثيراً، حتى ولا القطمير الذي هو أحقر الأشياء، وهذا من تنصيص النفي وعمومه، فكيف يُدْعَوْنَ، وهم غير مالكين لشيء من ملك السماوات والأرض؟

الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى ذلكم الله ربكم له الملك والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير * إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ولو سمعوا ما استجابوا لكم ويوم القيامة يكفرون بشرككم ولا ينبئك مثل خبير ﴿ هذا إخبار عن قدرته وحكمته ورحمته، أنه جعل البحرين لمصالح العالم الأرضي كلهم، وأنه لم يسو بينهما، لأن المصلحة تقتضي أن تكون الأنهار عذبة فراتاً، سائغاً شرابها، لينتفع بها الشاربون والغارسون والزارعون، وأن يكون البحر ملحاً أجاجاً، لئلا يفسد الهواء المحيط

بالأرض بروائح ما يموت في البحر من الحيوانات، ولأنه ساكن لا يجري، فملوحته تمنعه من التغيير، ولتكون حيواناته أحسن وألذ، ولهذا قال: ﴿ومن كل﴾ من البحر الملح والعذب ﴿تأكلون لحماً طرياً﴾ وهو السمك المتيسر صيده في البحر، ﴿وتستخرجون حلية تلبسونها﴾ من لؤلؤ ومرجان وغيرهما، مما يوجد في البحر، فهذه مصالح عظيمة للعباد.

ومن المصالح أيضاً والمنافع في البحر، أن سخره الله تعالى يحمل الفلك من السفن والمراكب، فتراها تمخر البحر وتشقه، فتسلك من إقليم إلى إقليم آخر، ومن محل إلى محل، فتحمل السائرين وأثقالهم وتجاراتهم، فيحصل بذلك من فضل الله وإحسانه شيء كثير، ولهذا قال: ﴿ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون﴾

ومن ذلك أيضاً، إيلاجه تعالى الليل بالنهار والنهار بالليل، يدخل هذا على هذا، وهذا على هذا، كلما أتى أحدهما ذهب الآخر، ويزيد أحدهما وينقص الآخر، ويتساويان، فيقوم بذلك ما يقوم من مصالح العباد في أبدانهم وحيواناتهم وأشجارهم وزروعهم.

وكذلك ما جعل الله في تسخير الشمس والقمر، الضياء والنور،

﴿وما يُعَمَّرُ من مُعَمَّرٍ ولا ينقص من عُمره﴾ أي: عمر الذي كان معمرأ عمراً طويلاً ﴿إلا﴾ بعلمه تعالى، أو وما ينقص من عمر الإنسان الذي هو يصدد أن يصل إليه، لولا ما سلكه من أسباب قصر العمر، كالزنا، وعقوق الوالدين، وقطيعة الأرحام، ونحو ذلك مما ذكر أنها من أسباب قصر العمر.

والمعنى: أن طول العمر وقصره، بسبب وبغير سبب، كله بعلمه تعالى، وقد أثبت ذلك ﴿في كتاب﴾ حوى ما يجري على العبد، في جميع أوقاته وأيام حياته.

﴿إن ذلك على الله يسير﴾ أي: إحاطة علمه بتلك المعلومات الكثيرة، وإحاطة كتابه فيها، فهذه ثلاثة أدلة من أدلة البعث والنشور، كلها عقلية، نبه الله عليها في هذه الآيات: إحياء الأرض بعد موتها، وأن الذي أحيها سيجي الموتى، وتنقل الأدمي في تلك الأقطار.

فالذي أوجده ونقله، طبقاً بعد طبق، وحالاً بعد حال، حتى بلغ ما قدر له، فهو على إعادته وإنشائه النشأة الأخرى أقدر، وهو أهون عليه، وإحاطة علمه بجميع أجزاء العالم، العلوي والسفلي، دقيقها وجليلها، الذي في القلوب، والأجنّة التي في البطون، وزيادة الأعمال ونقصها، وإثبات ذلك كله في كتاب. فالذي كان هذا [نعمته]^(١) يسيراً عليه، فأعادته للأموات أيسر وأيسر. فتبارك من كثر خيره، ونبّه عباده على ما فيه صلاحهم، في معاشهم ومعادهم.

﴿١٢ - ١٤﴾ ﴿وما يستوي البحران هذا عذب فرات سائغ شرابه وهذا ملح أجاج ومن كل تأكلون لحماً طرياً وتستخرجون حلية تلبسونها وترى الفلك فيه مواخر لتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون * يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل وسخر

(١) هنا جاءت كلمة (نعمته) في الهامش ولم يتضح لي محلها بدقة والأقرب أنه هنا.

(٢) كذا في: ب، وفي أ: وتخفيف ما يخفف.

ومن غناه تعالى، أن أغنى الخلق في الدنيا والآخرة، الحميد في ذاته، وأسمائه لأنها حسنى، وأوصافه لكونها غلباً، وأفعاله لأنها فضل وإحسان وعدل وحكمة ورحمة، وفي أوامره ونواهيه، فهو الحميد على ما فيه، وعلى ما منه، وهو الحميد في غناه [الغني في حمله].

﴿إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد﴾ يحتمل أن المراد: إن يشأ يذهبكم أي الناس، أطوع لله منكم، ويكون في هذا تهديد لهم بالهلاك والإبادة، وأن مشيئته غير قاصرة عن ذلك.

ويحتمل أن المراد بذلك، إثبات البعث والنشور، وأن مشيئة الله تعالى نافذة في كل شيء، وفي إعادتكم بعد موتكم خلقاً جديداً، ولكن لذلك الوقت أجل قدره الله، لا يتقدم عنه ولا يتأخر.

﴿وما ذلك على الله بعزيز﴾ أي: بممتنع، ولا معجز له.

ويدل على المعنى الأخير، ما ذكره بعده في قوله: ﴿ولا تزر وازرة وزر أخرى﴾ أي: في يوم القيامة كل أحد يجازى بعمله، ولا يحمل أحد ذنب أحد. ﴿وإن تدع مثقلة﴾ أي: نفس مثقلة بالخطايا والذنوب، تستغث بمن يحمل عنها بعض أوزارها ﴿لا يحمل منه شيء ولو كان ذا قربى﴾ فإنه لا يحمل عن قريب، فليست حال الآخرة بمنزلة حال الدنيا، يساعد الحميم حميمه، والصديق صديقه، بل يوم القيامة، يتمنى العبد أن يكون له حق على أحد، ولو على والديه وأقاربه.

﴿إنما تنذر الذين يخشون ربهم بالغيب وأقاموا الصلاة﴾ أي: هؤلاء الذين يقبلون النذارة وينتفعون بها، أهل الخشية لله بالغيب، أي: الذين يخشونه في حال السر والعلانية، والمشهد والغيب، وأهل إقامة الصلاة، بحدودها وشروطها وأركانها وواجباتها وخشوعها، لأن الخشية لله تستدعي من العبد العمل بما يخشى من تضييعه العقاب، والهرب مما يخشى من ارتكابه

ووصفهم، وأنهم فقراء إلى الله من جميع الوجوه:

فقراء في إيجادهم، فلولا إيجادهم إليهم، لم يوجدوا.

فقراء في إعدادهم بالقوى والأعضاء والجوارح، التي لولا إعداده إليهم [بها]، لما استعدوا لأي: عمل كان.

فقراء في إمدادهم بالأقوات والأرزاق والتعم الظاهرة والباطنة، فلولا فضله وإحسانه وتيسيره الأمور، لما حصل [لهم] من الرزق والتعم شيء.

فقراء في صرف النقم عنهم، ودفع المكاره، وإزالة الكروب والشدائد. فلولا دفعه عنهم، وتفريجه لكرباتهم، وإزالته لعسرهم، لاستمرت عليهم المكاره والشدائد.

فقراء إليه في تربيتهم بأنواع التربية وأجناس التدبير.

فقراء إليه، في تألههم له، وحبهم له، وتعبدهم، وإخلاص العبادة له تعالى، فلو لم يوفهم لذلك لهلكوا، وفسدت أرواحهم وقلوبهم وأحوالهم.

فقراء إليه، في تعليمهم ما لا يعلمون، وعملهم بما يصلحهم، فلولا تعليمه لم يتعلموا، ولولا توفيقه لم يصلحوا.

فهم فقراء بالذات إليه، بكل معنى، ويكل اعتبار، سواء شعروا ببعض أنواع الفقر أم لم يشعروا، ولكن الموقف منهم، الذي لا يزال يشاهد فقره في كل حال من أمور دينه ودنياه، ويتضرع له، ويسأله أن لا يكله إلى نفسه طرفة عين، وأن يعينه على جميع أموره، ويستصحب هذا المعنى في كل وقت، فهذا أحرى بالإعانة التامة من ربه وإلهه، الذي هو أرحم به من الوالدة بولدها.

﴿والله هو الغني الحميد﴾ أي: الذي له الغنى التام من جميع الوجوه، فلا يحتاج إلى ما يحتاج إليه خلقه، ولا يفتقر إلى شيء مما يفتقر إليه الخلق، وذلك لكمال صفاته، وكونها كلها صفات كمال، ونعوت وجلال.



ومع هذا ﴿إن تدعوهم﴾ لا يسمعوك لأنهم ما بين جهاد وأموات وملأئكة مشغولين بطاعة ربهم. ﴿ولو سمعوا﴾ على وجه الفرض والتقدير ﴿ما استجابوا لكم﴾ لأنهم لا يملكون شيئاً، ولا يرضى أكثرهم بعبادة من عبده، ولهذا قال: ﴿ويوم القيامة يكفرون بشرككم﴾ أي: يتبرؤون منكم، ويقولون: ﴿سبحانك أنت ولينا من دونهم﴾.

﴿ولا ينشك مثلاً خبير﴾ أي: لا أحد ينشك، أصدق من الله العليم الخبير، فاجزم بأن هذا الأمر، الذي نأى به كأنه رأي عين، فلا تشك فيه ولا تتمر. فتضمنت هذه الآيات، الأدلة والبراهين الساطعة، الدالة على أنه تعالى المألوه المعبود، الذي لا يستحق شيئاً من العبادة سواه، وأن عبادة ما سواه باطلة متعلقة بباطل، لا تفيد عابده شيئاً.

﴿١٥ - ١٨﴾ ﴿يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغني الحميد﴾ إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد * وما ذلك على الله بعزيز * ولا تزر وازرة وزر أخرى وإن تدع مثقلة إلى حملها لا يحمل منه شيء ولو كان ذا قربى إنما تنذر الذين يخشون ربهم بالغيب وأقاموا الصلاة ومن تزكى فإنما يتزكى لنفسه وإلى الله المصير﴾ يخاطب تعالى جميع الناس، ويخبرهم بحالهم

بأنواع العقوبات ﴿فكيف كان نكير﴾ عليهم؟ كان أشد النكير وأعظم التنكيل، فإياكم وتكذيب هذا الرسول الكريم، فيصيبيكم كما أصاب أولئك، من العذاب الأليم والحزني الوخيم.

﴿٢٧ - ٢٨﴾ ﴿ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفاً ألوانها ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود * ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك إنما يخشى الله من عباده العلماء إن الله عزيز غفور﴾ يذكر تعالى خلقه للأشياء المتضادات، التي أصلها واحد ومادتها واحدة، وفيها من التفاوت والفرق ما هو مشاهد معروف، ليدل العباد على كمال قدرته وبديع حكمته.

فمن ذلك: أن الله تعالى أنزل من السماء ماء، فأخرج به من الثمرات المختلفة، والنباتات المتنوعات، ما هو مشاهد للنظرين، والماء واحد، والأرض واحدة.

ومن ذلك: الجبال التي جعلها الله أوتاداً للأرض، تجدها جبالاً مشتبكة، بل جبالاً واحداً، وفيها ألوان متعددة، فيها جدد بيض، أي: طرائق بيض، وفيها طرائق صفراء، وفيها غرابيب سود، أي: شديدة السواد جداً.

ومن ذلك: الناس والدواب والأنعام، فيها من اختلاف الألوان والأوصاف والأصوات والهيئات، ما هو مرئي بالأبصار، مشهود للنظر، والكل من أصل واحد ومادة واحدة.

فتفاوتها دليل عقلي على مشيئة الله تعالى، التي خصصت ما خصصت منها، بلونه، ووصفه، وقدرة الله تعالى حيث أوجدها كذلك، وحكمته ورحمته، حيث كان ذلك الاختلاف وذلك التفاوت، فيه من المصالح والمنافع، ومعرفة الطرق، ومعرفة الناس بعضهم بعضاً، ما هو معلوم.

وذلك أيضاً، دليل على سعة علم الله تعالى، وأنه يبعث من في القبور، ولكن الغافل ينظر في هذه الأشياء وغيرها نظر غفلة لا تحدث له

﴿إن الله يسمع من يشاء﴾ سماع فهم وقبول، لأنه تعالى هو الهادي الموفق ﴿وما أنت بمسمع من في القبور﴾ أي: أموات القلوب، أو كما أن دعاءك لا يفيد سكان القبور شيئاً، كذلك لا يفيد المعرض المعاند شيئاً، ولكن وظيفتك النذارة، وإبلاغ ما أرسلت به، قبل منك أم لا.

ولهذا قال: ﴿إن أنت إلا نذير * إنا أرسلناك بالحق﴾ أي: مجرد إرسالنا إياك بالحق، لأن الله تعالى بعثك على حين فترة من الرسل، وطموس من السبل، واندراس من العلم، وضرورة عظيمة إلى بعثتك، فبعثك الله رحمة للعالمين.

وكذلك ما بعثناك به من الدين القويم، والصرراط المستقيم، حق لا باطل، وكذلك ما أرسلناك به، من هذا القرآن العظيم، وما اشتمل عليه من الذكركم الحكيم، حق وصدق. ﴿بشيراً﴾ لمن أطاعك، بشواب الله العاجل والآجل، ﴿ونذيراً﴾ لمن عصاك، بعقاب الله العاجل والآجل، ولست ببدع من الرسل.

فما ﴿من أمة﴾ من الأمم الماضية والقرون الخالية ﴿إلا خلا فيها نذير﴾ يقيم عليهم حجة الله ﴿ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حي عن بينة﴾.

﴿٢٥ - ٢٦﴾ ﴿وإن يكذبوك فقد كذب الذين من قبلهم جاءتهم رسلهم بالبينات وبالزبر وبالكتاب المنير * ثم أخذت الذين كفروا فكيف كان نكير﴾ أي: وإن يكذبك أيها الرسول، هؤلاء المشركون، فلست أزل رسول كذب، ﴿فقد كذب الذين من قبلهم جاءتهم رسلهم بالبينات﴾ الدالات على الحق، وعلى صدقهم فيما أخبروهم به، ﴿وبالزبر﴾ أي: الكتب المكتوبة، المجموع فيها كثير من الأحكام، ﴿والكتاب المنير﴾ أي: المضيء في أخباره الصادقة، وأحكامه العادلة، فلم يكن تكذيبهم إياهم ناشئاً عن اشتباه، أو قصور بما جاءتهم به الرسل، بل بسبب ظلمهم وعنادهم.

﴿٢٦﴾ ﴿ثم أخذت الذين كفروا﴾

العذاب، والصلاة تدعو إلى الخير، وتنتهي عن الفحشاء والمنكر.

﴿ومن تزكى فإنما يترقى لنفسه﴾ أي: ومن زكى نفسه بالتنقي من العيوب، كالرياء والكبر، والكذب والغش، والمكر والخداع والنفاق، ونحو ذلك من الأخلاق الرذيلة، وتحلى بالأخلاق الجميلة، من الصدق، والإخلاص، والتواضع، ولين الجانب، والنصح للعباد، وسلامة الصدر من الحقد والحسد وغيرهما من مساوئ الأخلاق، فإن تزكيتة يعود نفعها إليه، ويصل مقصودها إليه، ليس يضيع من عمله شيء.

﴿ولى الله المصير﴾ فيجازي الخلاق على ما أسلفوه، ويحاسبهم على ما قدموه وعملوه، ولا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها.

﴿١٩ - ٢٤﴾ ﴿وما يستوي الأعمى والبصير * ولا الظلمات ولا النور * ولا الظل ولا الحرور * وما يستوي الأحياء ولا الأموات إن الله يسمع من يشاء وما أنت بمسمع من في القبور * إن أنت إلا نذير * إنا أرسلناك بالحق بشيراً ونذيراً وإن من أمة إلا خلا فيها نذير﴾ يخبر تعالى أنه لا يتساوى الأضداد في حكمة الله، وفيما أودعه في فطر عباده، ﴿وما يستوي الأعمى فاقد البصر﴾ والبصير * ولا الظلمات ولا النور * ولا الظل ولا الحرور * وما يستوي الأحياء ولا الأموات﴾ فكما أنه من المتقرر عندهم، الذي لا يقبل الشك، أن هذه المذكورات لا تتساوى، فكذلك فلتعلموا أن عدم تساوي المتضادات المعنوية أولى وأولى.

فلا يستوي المؤمن والكافر، ولا المهتدي والضال، ولا العالم والجاهل، ولا أصحاب الجنة وأصحاب النار، ولا أحياء القلوب وأمواتها، فبين هذه الأشياء من التفاوت والفرق ما لا يعلمه إلا الله تعالى، فإذا علمت المراتب، وميزت الأشياء، وبان الذي ينبغي أن يتنافس في تحصيله من ضده، فليختر الحازم لنفسه ما هو أولى به وأحقها بالإثارة.

ولهذا، ما زال الله يرسل الرسل رسولاً بعد رسول، حتى ختمهم بمحمد ﷺ، فجاء بهذا الشرع، الذي يصلح لمصالح الخلق إلى يوم القيامة، ويتكفل بما هو الخير في كل وقت.

ولهذا، لما كانت هذه الأمة أكمل الأمم عقولاً، وأحسنهم أفكاراً، وأرقهم قلوباً، وأزكاهم أنفساً، اصطفاهم الله تعالى، واصطفى لهم دين الإسلام، وأورثهم الكتاب المهيمن على سائر الكتب، ولهذا قال: ﴿ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا﴾ وهم هذه الأمة. ﴿فمنهم ظالم لنفسه﴾ بالمعاصي، [التي] هي دون الكفر. ﴿ومنهم مقتصد﴾ مقتصر على ما يجب عليه، تارك للمحرم. ﴿ومنهم سابق بالخيرات﴾ أي: سارع فيها واجتهد، فسبق غيره، وهو المؤدي للفرائض، الأكثر من التوافل، التارك للمحرم والمكروه.

فكلهم اصطفاه الله تعالى، لورثة هذا الكتاب، وإن تفاوتت مراتبهم، وتميزت أحوالهم، فللكل منهم قسط من وراثته، حتى الظالم لنفسه، فإن ما معه من أصل الإيمان، وعلوم الإيمان، وأعمال الإيمان، من وراثته الكتاب، لأن المراد بورثة الكتاب، وراثته علمه وعمله، ودراسة ألفاظه، واستخراج معانيه.

وقوله: ﴿بيذن الله﴾ راجع إلى السابق بالخيرات، لثلاث بغير عمله، بل ما سبق إلى الخيرات إلا بتوفيق الله تعالى ومعونته، فينبغي له أن يشتغل بشكر الله تعالى على ما أنعم به عليه.

﴿ذلك هو الفضل الكبير﴾ أي: وراثته الكتاب الجليل لمن اصطفى تعالى من عباده، هو الفضل الكبير، الذي جمع النعم بالنسبة إليه، كالعدم، فأجل النعم على الإطلاق، وأكبر الفضل، وراثته هذا الكتاب.

ثم ذكر جزاء الذين أورثهم كتابه فقال: ﴿جنات عدن يدخلونها﴾ أي:

وذكر أنهم حصل لهم ما رجوه فقال: ﴿ليوفيهم أجورهم﴾ أي: أجور أعمالهم، على حسب قلتها وكثرتها، وحسنها ووعدهم، ﴿ويزيدهم من فضله﴾ زيادة عن أجورهم. ﴿إنه غفور شكور﴾ غفر لهم السيئات، وقيل منهم القليل من الحسنات.

﴿٣١ - ٣٥﴾ ﴿والذي أوحينا إليك من الكتاب هو الحق مصدقاً لما بين يديه إن الله بعباده خبير بصير﴾ ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله ذلك هو الفضل الكبير ﴿جنات عدن يدخلونها يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤاً ولباسهم فيهاحرير﴾ وقالوا الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن إن ربنا لغفور شكور ﴿الذي أحلنا دار المقامة من فضله لا يمسنا فيها نصب ولا يمسنا فيها لغوب﴾ يذكر تعالى أن الكتاب الذي أوحاه إلى رسوله ﴿هو الحق﴾ من كثرة ما اشتمل عليه من الحق، كأن الحق منحصر فيه، فلا يكن في قلوبكم حرج منه، ولا تستبرموا منه، ولا تستهينوا به، فإذا كان هو الحق، لزم أن كل ما دل عليه من المسائل الإلهية والغيبية وغيرها، مطابق لما في الواقع، فلا يجوز أن يراد به ما يخالف ظاهره وما دل عليه.

﴿مصدقاً لما بين يديه﴾ من الكتب والرسول، لأنها أخبرت به، فلما وجد وظهر، ظهر به صدقها، فهي بشرت به وأخبرت، وهو صدقها، ولهذا لا يمكن أحد أن يؤمن بالكتب السابقة، وهو كافر بالقرآن أبداً، لأن كفره به ينقض إيمانه بها، لأن من جملة أخبارها الخبر عن القرآن، ولأن أخبارها مطابقة لأخبار القرآن.

﴿إن الله بعباده خبير بصير﴾ فيعطي كل أمة وكل شخص، ما هو اللائق بحاله. ومن ذلك، أن الشرائع السابقة لا تليق إلا بوقتها وزمانها،

التذكر، وإنما ينتفع بها من يخشى الله تعالى، ويعلم بفكره الصائب وجه الحكمة فيها.

ولهذا قال: ﴿إنما يخشى الله من عباده العلماء﴾ فكل من كان بالله أعلم، كان أكثر له خشية، وأوجبت له خشية الله، الانكفاف عن المعاصي، والاستعداد للقاء من يخشاه، وهذا دليل على فضيلة العلم، فإنه داخ إلى خشية الله، وأهل خشيته هم أهل كرامته، كما قال تعالى: ﴿رضي الله عنهم ورضوا عنه ذلك لمن خشي ربه﴾.

﴿إن الله عزيز﴾ كامل العزة، ومن عزته خلق هذه المخلوقات المتضادات. ﴿غفور﴾ لذنوب التائبين.

﴿٢٩٩ - ٣٠﴾ ﴿إن الذين يتلون كتاب الله وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية يرجون تجارة لن تبور﴾ ليوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله إنه غفور شكور ﴿إن الذين يتلون كتاب الله﴾ أي: يتبعونه في أوامره فيمتثلونها، وفي نواهيه فيتركونها، وفي أخباره فيصدقونها ويعتقدونها، ولا يقدمون عليه ما خالفه من الأقوال، ويتلون أيضاً ألفاظه، بدراسته، ومعانيه، بتتبعها واستخراجها.

ثم خص من التلاوة بعدما عم، الصلاة التي هي عماد الدين، ونور المسلمين، وميزان الإيمان، وعلامة صدق الإسلام، والنفقة على الأقارب والمساكين واليتامى وغيرهم، من الزكاة والكفارات والصدقات. ﴿سراً وعلانية﴾ في جميع الأوقات.

﴿يرجون﴾ [بذلك] تجارة لن تبور﴾ أي: لن تكسد وتفسد، بل تجارة، هي أجل التجارات وأعلىها وأفضلها، ألا وهي رضا ربهم، والفوز بجزيل ثوابه، والنجاة من سخطه وعقابه، وهذا فيه أنهم يخلصون^(١) بأعمالهم، وأنهم لا يرجون بها من المقاصد السيئة والنيات الفاسدة شيئاً.

(١) في ب: الإخلاص.

الدنيا، وأدبرنا عليكم الأرزاق، وقبضنا لكم أسباب الراحة، ومددنا^(١) لكم في العمر، وتابعنا عليكم الآيات، وأوصلنا إليكم النذر، وابتليناكم بالسراء والضراء، لتنبؤوا إلينا وترجعوا إلينا، فلم ينجع فيكم إنذار، ولم تفد فيكم موعظة، وأخرنا عنكم العقوبة، حتى إذا انقضت آجالكم وتمت أعماركم، ورحلتكم عن دار الإمكان بأشرف الحالات، ووصلتم إلى هذه الدار دار الجزاء على الأعمال، سألتهم الرجعة؟ هيئات هيئات، فأتت وقت الإمكان، وغضب عليكم الرحيم الرحمن، واشتد عليكم عذاب النار، ونسيكم أهل الجنة، فامكنوا فيها خالدين مخلدين، وفي العذاب مهانين، ولهذا قال: ﴿فَذُوقُوا عَذَابَ اللّٰظْمِ اِنَّكُمْ كُنْتُمْ فِيهَا ناصِرِينَ﴾ ينصرونهم فيخرجهم منها، أو يخفف عنهم من عذابها.

﴿٣٨﴾ ﴿اِنَّ اللّٰهَ عَالِمُ الْغَيْبِ السَّمٰوٰتِ وَالْاَرْضِ اِنَّهٗ عَلِيْمٌ بِذٰتِ الصُّدُوْرِ﴾ لما ذكر تعالى جزاء أهل الدارين، وذكر أعمال الفريقين، أخبر تعالى عن سعة علمه تعالى، واطلاعه على غيب السماوات والأرض، التي غابت عن أبصار الخلق وعن علمهم، وأنه عالم بالسرائر، وما تنطوي عليه الصدور من الخير والشر والزكاء وغيره، فيعطي كلاً ما يستحقه، وينزل كل أحد منزلته.

﴿٣٩﴾ ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْاَرْضَ فَاَنْتُمْ عَلَيْهَا حٰكِمَةٌ﴾ هو الذي جعلكم خلائف في الأرض فمن كفر فعليه كفره ولا يزيد الكافرين كفرهم عند ربهم إلا مقتاً ولا يزيد الكافرين كفرهم إلا خساراً﴾ يخبر تعالى عن كمال حكمته ورحمته بعباده، أنه قدر بقضائه السابق، أن يجعل بعضهم يخلف بعضاً في الأرض، ويرسل لكل أمة من الأمم النذر، فينظر كيف يعملون، فمن كفر بالله وبما جاءت به رسله، فإن كفره عليه، وعليه إثمه وعقوبته، ولا يحمل عنه أحد، ولا يزداد الكافر بكفره إلا مقتاً ربه له وبغضه إياه، وأي: عقوبة أعظم

فيها لغوب﴾ أي: لا تعب في الأبدان ولا في القلب والقوى، ولا في كثرة التمتع، وهذا يدل على أن الله تعالى يجعل أبدانهم في نشأة كاملة، ويهيئ لهم من أسباب الراحة على الدوام، ما يكونون بهذه الصفة، بحيث لا يمسهم نصب ولا لغوب، ولا هم ولا حزن.

ويدل على أنهم لا ينامون في الجنة، لأن النوم فائدته زوال التعب، وحصول الراحة به، وأهل الجنة بخلاف ذلك، ولأنه موت أصغر، وأهل الجنة لا يموتون، جعلنا الله منهم، بمنه وكرمه.

﴿٣٦-٣٧﴾ ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يَقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فِيمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كٰفِرٍ * وَهُمْ يَصْطَرِّخُونَ فِيهَا رَبَّنَا اَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صٰلِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلْ اُولٰٓئِكَ نَعْمَلُكُمْ مَا يُتَذَكَّرُ فِيهِ مِنْ تَذٰكِرٍ وَاُولٰٓئِكَ لَمَّا ذُكِّرُوا وَلٰكِن تَعَالٰى حَالُ اللّٰظْمِ اِنَّكُمْ كُنْتُمْ فِيهَا ناصِرِينَ﴾ ما ذكر تعالى حال أهل الجنة ونعيمهم، ذكر حال أهل النار وعذابهم فقال: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: جحدوا ما جاءهم به رسلهم من الآيات، وأنكروا لقاء ربهم.

﴿لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ﴾ يعذبون فيها أشد العذاب، وأبلغ العقاب. ﴿لَا يَقْضَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ بالموت ﴿فَيَمُوتُوا﴾ فيستريحوا، ﴿وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا﴾ فشدة العذاب وعظمته، مستمر عليهم في جميع الآتات واللحظات.

﴿كَذٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كٰفِرٍ * وَهُمْ يَصْطَرِّخُونَ فِيهَا﴾ أي: يصرخون ويتصايحون ويستغيثون ويقولون: ﴿رَبَّنَا اَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صٰلِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾ فاعترفوا بذنبيهم، وعرفوا أن الله عدل فيهم، ولكن سألوا الرجعة في غير وقتها، فيقال لهم: ﴿اُولٰٓئِكَ نَعْمَلُكُمْ مَا﴾ أي: دهرأ وعمراً ﴿يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرُ﴾ أي: يتمكن فيه من أراد التذكر من العمل، متعناكم في

جنات مشتملات على الأشجار، والظل، والظليل، والحدائق الحسنة، والأهبار المتدفقة، والقصور العالية، والمنازل المزخرفة، في أبد لا يزول، وعيش لا ينفد.

والعدن «الإقامة» جنات عدن أي: جنات إقامة، أضافها للإقامة، لأن الإقامة والخلود وصفها ووصف أهلها.

﴿يُحَلِّوْنَ فِيهَا مِنْ اَسْوَارٍ مِنْ ذَهَبٍ﴾ وهو الخلي الذي يجعل في اليمين، على ما يجوبون، ويرون أنه أحسن من غيره، الرجال والنساء في الحلية في الجنة سواء. ﴿وَيُحَلِّوْنَ فِيهَا مِنْ لؤلؤٍ﴾ ينظم في ثيابهم وأجسادهم. ﴿وَلِبَاسَهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ من سندس، ومن إستبرق أخضر.

﴿وَيُحَلِّوْنَ فِيهَا مِنْ لؤلؤٍ﴾ ما تم نعيمهم، وكملت لذتهم ﴿قَالُوا الْحَمْدُ لِلّٰهِ الَّذِي اٰتٰنَا هٰذَا الْحِزْنَ﴾ وهذا يشمل كل حزن، فلا حزن يعرض لهم بسبب نقص في جمالهم، ولا في طعامهم وشرابهم، ولا في لذاتهم ولا في أجسادهم، ولا في دوام لبثهم، فهم في نعيم ما يرون عليه مزيداً، وهو في تزايد أبد الأباد.

﴿اِنَّ رَبَّنَا لَغَفُوْرٌ﴾ حيث غفر لنا الزلات ﴿شكور﴾ حيث قبل منا الحسنات وضاعفتها، وأعطانا من فضله ما لم تبلغه أعمالنا ولا أمانينا، فبمغفرته نجوا من كل مكروه ومرهوب، وبشكره وفضله حصل لهم كل مرغوب محبوب.

﴿الَّذِي اٰحَلَّنَا﴾ أي: أنزلنا نزول حلول واستقرار، لا نزول معبر واعتبار. ﴿دار المقامة﴾ أي: الدار التي تدوم فيها الإقامة، والدار التي يرغب في المقام فيها، لكثرة خيراتها، وتوالي مسراتها، وزوال كدوراتها، وذلك الإحلال ﴿من فضله﴾ علينا وكرمه، لا بأعمالنا، فلولا فضله، لما وصلنا إلى ما وصلنا إليه.

﴿لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا﴾

من مقت الرب الكريم؟!

﴿ولا يزيد الكافرين كفرهم إلا خساراً﴾ أي: يخسرون أنفسهم وأهليهم وأعمالهم ومنازلهم في الجنة، فالكافر لا يزال في زيادة من الشقاء والخسران، والحزني عند الله وعند خلقه والحرماني.

﴿٤٠﴾ ﴿قل أرايتم شركاءكم الذين تدعون من دون الله أروني ماذا خلقوا من الأرض أم لهم شرك في السموات أم آتيناهم كتاباً فهم على بينة منه بل إن يعد الظالمون بعضهم بعضاً إلا غروراً﴾ يقول تعالى مُعْجِزاً لِأَلْهَةِ الْمُشْرِكِينَ، وَمَبِيناً نَقَصَهَا، وَبَطْلَانَ شُرُكِهِمْ مِنْ جَمِيعِ الْوُجُوهِ.

﴿قل﴾ يا أيها الرسول لهم: ﴿أرايتم﴾ أي: أخبروني عن شركائكم الذين تدعون من دون الله هل هم مستحقون للدعاء والعبادة، ف ﴿أروني ماذا خلقوا﴾ [من الأرض] هل خلقوا بحراً أم خلقوا جبلاً أو خلقوا حيواناً، أو خلقوا جماداً؟ سيقرون أن الخالق لجميع الأشياء هو الله تعالى، أم لشركائكم شركة ﴿في السموات﴾ في خلقها وتديرها؟ سيقولون: ليس لهم شركة.

فإذا لم يخلقوا شيئاً، ولم يشاركوا الخالق في خلقه، فلم عبدتموهم ودعوتهم مع إقراركم بعجزهم؟ فانتفى الدليل العقلي على صحة عبادتهم، ودل على بطلانها.

ثم ذكر الدليل السمعي، وأنه أيضاً متنف، فلماذا قال: ﴿أم آتيناهم كتاباً﴾ يتكلم بما كانوا به يشركون، يأمرهم بالشرك وعبادة الأوثان. ﴿فهم﴾ في شركهم ﴿على بينة﴾ من ذلك الكتاب الذي نزل عليهم في صحة الشرك؟

ليس الأمر كذلك؟ فإنهم ما نزل عليهم كتاب قبل القرآن، ولا جاءهم نذير قبل رسول الله محمد ﷺ، ولو قدر نزول كتاب إليهم، وإرسال رسول إليهم، وزعموا أنه أمرهم بشركهم، فإننا نجزم بكذبهم، لأن الله قال: ﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا

نوحى إليه أنه لا إلا أنا فاعبدون﴾ فالرسل والكتب، كلها متفقة على الأمر بإخلاص الدين لله تعالى، ﴿وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء﴾.

فإن قيل: إذا كان الدليل العقلي والنقلي قد دل على بطلان الشرك، فما الذي حل المشركين على الشرك، وفيهم ذوو العقول والذكاء واللفظة؟

أجاب تعالى بقوله: ﴿بل إن يعد الظالمون بعضهم بعضاً إلا غروراً﴾ أي: ذلك الذي مشوا عليه، ليس لهم فيه حجة، فإنما ذلك توصية بعضهم لبعض به، وتزيين بعضهم لبعض، واقتداء المتأخر بالتقدم الضال، وأمانى مَنَّاها الشيطان، وزين لهم [سوء] أعمالهم، فنشأت في قلوبهم، وصارت صفة من صفاتها، فعسر زوالها، وتعسر انفصالها، فحصل ما حصل من الإقامة على الكفر والشرك الباطل المضمحل.

﴿٤١﴾ ﴿إن الله يمسك السماوات والأرض أن تزولا ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده إنه كان حليماً غفوراً﴾ يخبر تعالى عن كمال قدرته، وتمام رحمته، وسعة حلمه ومغفرته، وأنه تعالى يمسك السماوات والأرض عن الزوال، فإنما لو زالتا أمسكهما أحد من الخلق، ولمعجزت قدرهم وقواهم عنهما.

ولكنه تعالى، قضى أن يكونا كما وجدا، ليحصل للخلق القرار، والنفع والاعتبار، وليعلموا من عظيم سلطانه وقوة قدرته، ما به تمتلئ قلوبهم له إجلالاً وتعظيماً، ومحبة وتكريماً، وليعلموا كمال حلمه ومغفرته، بإمهال المذنبين، وعدم معالجته للعاصين، مع أنه لو أمر السماء لحصبتهم، ولو أذن للأرض لابتلعتهم، ولكن وسعتهم مغفرته، وحلمه، وكرمه ﴿إنه كان حليماً غفوراً﴾

﴿٤٢﴾ - ﴿٤٣﴾ ﴿وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءهم نذير ليكونن أهدى من إحدى الأمم فلما جاءهم نذير ما

زادهم إلا نفوراً * استكباراً في الأرض ومكر السيئ ولا يجيئ المكر السيئ إلا بأهله فهل ينظرون إلا سنة الأولين فلن تجد لسنة الله تبديلاً ولن تجد لسنة الله تحويلاً﴾ أي: وأقسم هؤلاء، الذين كذبوك يا رسول الله، قسماً اجتهدوا فيه بالإيمان الغليظة: ﴿لئن جاءهم نذير ليكونن أهدى من إحدى الأمم﴾ أي: أهدى من اليهود والنصارى [أهل الكتب]، فلم يفوا بتلك الإقسامات والعهود.

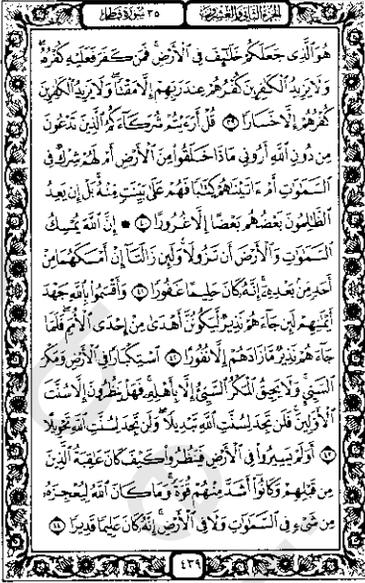
﴿فلما جاءهم نذير﴾ لم يبتدوا، ولم يصيروا أهدى من إحدى الأمم، بل لم يدوموا على ضلالهم الذي كان، بل ﴿ما زادهم﴾ ذلك ﴿إلا نفوراً﴾ زيادة ضلال وبغي وعناد.

وليس إقسامهم المذكور، لقصد حسن، وطلب للحق، وإلا لوفقوا له، ولكنه صادر عن استكبار في الأرض على الخلق وعلى الحق، وبهجة في كلامهم هذا، يريدون به المكر والخداع، وأنهم أهل الحق، الحريصون على طلبه، فيفتروا به المغترون، ويمشي خلفهم المقتدون.

﴿ولا يجيئ المكر السيئ﴾ الذي مقصوده مقصود سيئ، وماله وما يرمي إليه سيئ باطل ﴿إلا بأهله﴾ فمكرهم إنما يعود عليهم، وقد أبان الله لعباده في هذه المقالات وتلك الإقسامات، أنهم كذبة في ذلك مزورون، فاستبان خزيم، وظهرت فضيحتهم، وتبين قصلدهم السيئ، فعاد مكرهم في نحورهم، ورد الله كيدهم في صدورهم.

فلم يبق لهم إلا انتظار ما يجلب بهم من العذاب، الذي هو سنة الله في الأولين، التي لا تبدل ولا تغير، أن كل من سار في الظلم والعناد والاستكبار على العباد، أن يجلب به نقمته، وتسلب عنه نعمته، فليترقب هؤلاء، ما فعل بأولئك.

﴿٤٤﴾ - ﴿٤٥﴾ ﴿أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم وكانوا أشد منهم قوة وما كان الله ليعجزه من شيء في السموات ولا



الصرط المستقيم، مشتمل على أعمال، وهي الأعمال الصالحة، الصلحة للقلب والبدن، والدنيا والآخرة، والأخلاق الفاضلة، المزكية للنفس، المطهرة للقلب، النمية للأجر، فهذا الصراط المستقيم، الذي هو وصف الرسول ﷺ، ووصف دينه الذي جاء به، فتأمل جلالة هذا القرآن الكريم، كيف جمع بين القسم بأشرف الأقسام، على أجل مقسم عليه، وخبر الله وحده كاف، ولكنه تعالى أقام من الأدلة الواضحة والبراهين الساطعة في هذا الموضوع على صحة ما أقسم عليه، من رسالة رسوله ما نبهنا عليه، وأشرنا إشارة لطيفة لسلوك طريقه، وهذا الصراط المستقيم ﴿ فنزّل العزيز الرحيم ﴾ فهو الذي أنزل به كتابه، وأنزله طريقاً لعباده، موصلاً لهم إليه، فحمّاه بعزته عن التغيير والتبديل، ورحم به عباده رحمة اتصلت بهم، حتى أوصلتهم إلى دار رحمته، ولهذا ختم الآية بهذين الاسمين الكريمين: العزيز الرحيم.

فلما أقسم تعالى على رسالته وأقام الأدلة عليها، ذكر شدة الحاجة إليها واقتضاء الضرورة لها فقال: ﴿ لتنذر قوماً ما أنذر آباؤهم فهم غافلون ﴾ وهم العرب الأميون، الذين لم يزالوا خالين

بين أيديهم سداً ومن خلفهم سداً فأغشيناهم فهم لا يبصرون * وسواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرتهم لا يؤمنون * إنما تنذر من اتبع الذكر وخشي الرحمن بالغيب فبشره بمغفرة وأجر كريم * إننا نحن نحيي الموتى ونكتب ما قدموا وآثارهم وكل شيء أحصيناه في إمام مبين ﴿ هذا قسم من الله تعالى بالقرآن الحكيم، الذي وصفه الحكمة، وهي وضع كل شيء موضعه، وضع الأمر والنهي في الموضع ^(٢) اللائق بهما، ووضع الجزاء بالخير والشر في محلها اللائق بهما، فأحكامه الشرعية والجزائية كلها مشتملة على غاية الحكمة.

ومن حكمة هذا القرآن، أنه يجمع بين ذكر الحكم وحكمته، فينبه العقول على المناسبات والأوصاف المقتضية لترتيب الحكم عليها.

﴿ إنك لمن المرسلين ﴾ هذا المقسم عليه، وهو رسالة محمد ﷺ، وإنك من جملة المرسلين، فلست ببدع من الرسل، وأيضاً فحجت بما جاء به الرسل من الأصول الدينية، وأيضاً فمن تأمل أحوال ^(٣) المرسلين وأوصافهم، وعرف الفرق بينهم وبين غيرهم، عرف أنك من خيار المرسلين، بما فيك من الصفات الكاملة، والأخلاق الفاضلة.

ولا يخفى ما بين المقسم به، وهو القرآن الحكيم، وبين المقسم عليه، [وهو] رسالة الرسول محمد ﷺ من الاتصال، وأنه لو لم يكن لرسالته دليل، ولا شاهد إلا هذا القرآن الحكيم، لكفى به دليلاً وشاهداً على رسالة محمد ﷺ بل القرآن العظيم أقوى الأدلة المتصلة المستمرة على رسالة الرسول، فأدلة القرآن كلها أدلة لرسالة محمد ﷺ.

ثم أخبر بأعظم أوصاف الرسول ﷺ، الدالة على رسالته، وهو أنه ﴿ على صراط مستقيم ﴾ معتدل، موصل إلى الله وإلى دار كرامته، وذلك

في الأرض إنه كان عليمًا قديرًا * ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى فإذا جاء أجلهم فإن الله كان بعباده بصيرًا ﴿ يحض تعالى على السير في الأرض، في القلوب والأبدان، للاعتبار، لا لمجرد النظر والغفلة، وأن ينظروا إلى عاقبة الذين من قبلهم ممن كذبوا الرسل، وكانوا أكثر منهم أموالاً وأولاداً وأشد قوة، وعمروا الأرض ^(١) أكثر مما عمرها هؤلاء، فلما جاءهم العذاب، لم تنفعهم قوتهم، ولم تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئاً، ونفذت فيهم قدرة الله ومشيئته.

﴿ وما كان الله ليعجزه من شيء في السماوات ولا في الأرض ﴾ لكمال علمه وقدرته ﴿ إنه كان عليمًا قديرًا ﴾ ثم ذكر تعالى كمال حلمه، وشدة إمهاله وإنظاره أرباب الجرائم والذنوب، فقال: ﴿ ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ﴾ من الذنوب ﴿ ما ترك على ظهرها من دابة ﴾ أي: لاستوعبت العقوبة، حتى الحيوانات غير المكلفة.

﴿ ولكن ﴾ يمهلهم تعال ولا يمهلهم و ﴿ يؤخرهم إلى أجل مسمى فإذا جاء أجلهم فإن الله كان بعباده بصيرًا ﴾ فيجازيهم بحسب ما علمه منهم، من خير وشر. ثم تفسير سورة فاطر، والحمد لله رب العالمين

تفسير سورة يس وهي مكية

﴿ ١٢ - ١٠ ﴾ ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم يس * والقرآن الحكيم * إنك لمن المرسلين * على صراط مستقيم * تنزيل العزيز الرحيم * لتنذر قوماً ما أنذر آباؤهم فهم غافلون * لقد حق القول على أكثرهم فهم لا يؤمنون * إنا جعلنا في أعناقهم أغلالاً فهي إلى الأذقان فهم مقمحون * وجعلنا من

(٣) كذا في ب، وفي أ: أصول.

(٢) في ب: في المحل.

(١) كذا في ب، وفي أ: وعمروها.

وما أشبه ذلك، فإنها من آثاره التي تكتب له، وكذلك عمل الشر.

ولهذا: «مَنْ سَنَّ سُنَّةَ حَسَنَةٍ فَلَهُ أَجْرُهَا وَأَجْرُ مَنْ عَمَلَ بِهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ سَنَّ سُنَّةَ سَيِّئَةٍ فَعَلِيهِ وَزَرُّهَا وَوَزَرَ مَنْ عَمَلَ بِهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ».

وهذا الموضوع، يبين لك علو مرتبة الدعوة إلى الله والهداية إلى سبيله بكل وسيلة وطريق موصل إلى ذلك، ونزول درجة الداعي إلى الشر الإمام فيه، وأنه أسفل الخليفة، وأشدهم جرماً، وأعظمهم إثماً.

«وكل شيء» من الأعمال والنيات وغيرها «أحصيناه في إمام مبین» أي: كتاب هو أم الكتب وإليه مرجع الكتب، التي تكون بأيدي الملائكة، وهو اللوح المحفوظ.

١٣ - ٣٠ «واضرب لهم مثلاً أصحاب القرية إذ جاءها المرسلون» إلى آخر القصة. أي: واضرب لهؤلاء المكذبين برسالتك، الرادين لدعوتك، مثلاً يعتبرون به، ويكون لهم موعظة إن وفقوا للخير، وذلك المثل: أصحاب القرية، وما جرى منهم من التكذيب لرسل الله، وما جرى عليهم من عقوبته ونكاله.

وتعيين تلك القرية، لو كان فيه فائدة، لعينها الله، فالتعرض لذلك وما أشبهه من باب التكلف والتكلم بلا علم، ولهذا إذا تكلم أحد في مثل هذا تجد عنده من الخبط والخلط والاختلاف الذي لا يستقر له قرار، ما تعرف به أن طريق العلم الصحيح، الوقوف مع الحقائق، وترك التعرض لما لا فائدة فيه، وبذلك تزكو النفس، ويزيد العلم، من حيث يظن الجاهل أن زيادته بذكر الأقوال التي لا دليل عليها، ولا حجة عليها ولا يحصل منها من الفائدة إلا تشويش الذهن واعتياد الأمور المشكوك فيها.

والشاهد أن هذه القرية جعلها الله مثلاً للمخاطبين. «إذ جاءها

رؤوسهم إلى فوق»، «فهم مقمحون» أي: رافعو رؤوسهم من شدة الغل الذي في أعناقهم، فلا يستطيعون أن يخفضوها.

«وجعلنا من بين أيديهم سداً ومن خلفهم سداً» أي: حاجزاً يحجزهم عن الإيمان، «فهم لا يبصرون» قد غمرهم الجهل والشقاء من جميع جوانبهم، فلم تفد فيهم النذارة.

«وسواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون» وكيف يؤمن من طبع على قلبه، ورأى الحق باطلاً والباطل حقاً؟! والقسم الثاني: الذين قبلوا النذارة، وقد ذكرهم بقوله: «إنما تنذر» أي:

إنما تنفع نذارتك، ويتعظ بنصحك «مَنْ اتَّبَعَ الذِّكْرَ» [أي: مَنْ قَصَدَهُ اتِّبَاعَ الْحَقِّ وَمَا ذَكَرَ بِهِ، وَوَحْشِي الرَّحْمَنِ بِالْغَيْبِ] أي: مَنْ اتَّصَفَ بِهِذِينَ الْأَمْرِينَ، الْقَصْدَ الْحَسَنَ فِي طَلْبِ الْحَقِّ، وَوَحْشِيَةَ اللَّهِ تَعَالَى، فَهَمُ الَّذِينَ يَنْتَفِعُونَ بِرِسَالَتِكَ، وَيَزْكُونَ بِتَعْلِيمِكَ، وَهَذَا الَّذِي وَفَّقَ لَهُذِينَ الْأَمْرِينَ «فِي شَرِّهِ بِمَغْفِرَةٍ» لذنوبه، «وَأَجْرَ كَرِيمٍ» لأعماله الصالحة، ونيته الحسنة.

«إنما نحن نحيي الموتى» أي: نبعثهم بعد موتهم لنجازيهم على الأعمال، «ونكتب ما قدموا» من الخير والشر، وهو أعمالهم التي عملوها وباشروها في حال حياتهم، «وآثارهم» وهي آثار الخير وآثار الشر، التي كانوا هم السبب في إيجادها في حال حياتهم وبعد وفاتهم، وتلك الأعمال التي نشأت من أقوالهم وأفعالهم وأحوالهم، فكل خير عمل به أحد من الناس، بسبب علم العبد وتعليمه ونصحه، أو أمره بالمعروف، أو نهيهِ عن المنكر، أو علم أودعه عند المتعلمين، أو في كتب ينتفع بها في حياته وبعد موته، أو عمل خيراً، من صلاة أو زكاة أو صدقة أو إحسان، فاقترده به غيره، أو عمل مسجداً، أو محلاً من المحال التي يرتفق بها الناس،



من الكتب، عادمين الرسل، قد عمتهم الجهالة، وغمرتهم الضلالة، وأضحكوا عليهم وعلى سفههم عقول العالمين، فأرسل الله إليهم رسولاً من أنفسهم، يزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة، وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين، فينذر العرب الأميين، ومَنْ لَحِقَ بِهِمْ مِنْ كُلِّ أُمَّيٍّ، وَيَذَكِّرُ أَهْلَ الْكِتَابِ بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْكِتَابِ، فَنِعْمَةٌ اللَّهُ بِهِ عَلَى الْعَرَبِ خُصُوصاً، وَعَلَى غَيْرِهِمْ عَمُوماً. ولكن هؤلاء الذين بعثت فيهم لإنذارهم بعدما أنذرتهم، انقسموا قسمين: قسم رد لما جئت به، ولم يقبل النذارة، وهم الذين قال الله فيهم «لقد حق القول على أكثرهم فهم لا يؤمنون» أي: نفذ فيهم القضاء والمشيئة، أنهم لا يزالون في كفرهم وشركهم، وإنما حق عليهم القول بعد أن عرّض عليهم الحق فرفضوه، فحينئذ عوقبوا بالطبع على قلوبهم.

وذكر الموانع من وصول الإيمان لقلوبهم، فقال: «إنما جعلنا في أعناقهم أغلالاً» وهي جمع «غل» و «الغل»: ما يغل به العنق، فهو للعنق بمنزلة القيد للرجل، وهذه الأغلال التي في الأعناق^(١)، عظيمة قد وصلت إلى أذقانهم ورفعت

(١) كذا في ب، وفي أ: الأذقان.